ابن شداد الموصلي مؤرخ سيرة صلاح الدين وجهاده والناطق باسمه

■ بقلم الاستاذ الدكتور سامي الصقار

لقد حظيت معارك الجهاد التي خاضها المسلمون بقيادة صلاح الدين الأيوبي رحمه الله وأهل بيته، باهتمام عدد من المؤرخين الذين اختصوا بها، كما حظيت باهتمام مؤرخي التاريخ الاسلامي بصورة عامة، من أمثال ابن الجوزي وابن الأثير وأبي الفداء وابن كثير.

كذلك اهتم بها مؤلفو معاجم السير الشخصية، كإبن خلكان في «وفيات الأعيان» ومن سار على نهجه، أو مؤرخي بعض الأقاليم مثل «الاعلاق الخطيرة في تاريخ الشام والجزيرة» لمحمد بن علي المقدسي المتوفى سنة ٦٨٢هـ، علاوة على فريق من المؤرخين الذين اختصوا بالجهاد ضد الصليبيين، وفي مقدمتهم ابن شداد الموصلي في كتابه «سيرة صلاح الدين» وهو الذي اتخذه كاتباً لرسائله، علاوة على الوظائف الأخرى.

ومن هذه الكتب: «مفرج الكروب» لمحمد ابن واصل، وكتاب «الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية» لشهاب الدين المقدسي، المعروف بأبي شامة، أما ابن شداد فهو «يوسف بن رافع الاسدي الموصلي» الذي يعد من كبار القضاة، وشداد هو جده لأمه، وقد تفقه في الموصل وبغداد، وتولى الإعادة بالمدرسة النظامية نحو اربع سنوات ودرّس في الموصل وحلب ودمشق التي حدّث بها، وقد ولاه صلاح الدين قضاء العسكر، كما ولاه قضاء بيت المقدس وأوقافها، علاوة على

مرافقته له في غزواته التي دوّن وقائعها، وبقي يرافقه حتى وفاته رحمه الله.

أما لقاؤه لصلاح الدين لأول مرة فقد تم مصادفة، ذلك ان ابن شداد مر بالشام في طريقه الى الحج سنة ٥٨٣هـ كما مر بها في عودته، ولقي صلاح الدين الذي أُعجب به، وعرض عليه تولي قضاء العسكر كما اسلفنا، وبقي على صلة وثيقة به حتى وفاته، وعندها اتصل بابنه الملك الظاهر في حلب.

ويبدو ان شخصية ابن شداد هي التي مهدت له سبيل التقدم لدى صلاح الدين الذي اختصه بكثير من الرعاية «مقدمة كتاب الروضتين آنف الذكر ج١/٢٥»، ومنذ عام ٥٨٤هـ بقي ملازماً لصلاح الدين في جميع معاركه، ويسجل مشاهداته «المصدر السابق ص٣٥».

كما كلفه صلاح الدين بأن يكون المتكلم باسمه «سيرة صلاح الدين ص٢٠٩ ومفرج الكروب ج٢/٣٨٥-٣٨٧» لابن واصل الذي نقل قولاً لابن شداد، بأن صلاح الدين أمره ان يحث عساكر المسلمين المرابطين حول القدس على الجهاد، وكان السلطان يتولى الكلام بعده، فيعظم مهمة المجاهدين، وهم بذلك يخفرون حياة المسلمين.

وقد ورد في «مفرج الكروب» قول لابن شداد بأن السلطان كان يستشيره حول القتال، ثم خالطه في المرحلة الاخيرة من حياته مخالطة تامة، وهو يروي معظم السيرة الشخصية عن مشاهدة مباشرة، لهذا اعتبرت السيرة التي صنفها ابن شداد من اوثق المراجع لسيرة صلاح الدين حسبما اكده المحقق لسيرته جمال الدين الشيال «ص٧ هامش١».

والمؤكد ان السلطان سيّره في سنة ٥٨٤هـ رسولاً الى الخليفة، فسار مسرعاً في نهر دجلة من الموصل الى بغداد، فوصلها في يومين، وعاد منها، وسيّر معه الخليفة شيخ الشيوخ، لعظم تقديره لصلاح الدين «السيرة ص٥٧ و٦٤-٦٥» والفتح القسي ص٢١٦-٢١٧»، ومما ذكره ابن شداد عن تقوى صلاح الدين «انه كان يحضر مجالس الشيوخ الذين لا يحضرون مجلسه، فيقصدهم في مجالسهم، مثل ابي طاهر السلفي الذي كان يعقد مجلسه في الاسكندرية» (ص٩).

وقد جمع للسلطان ابن شداد كتاباً في

احكام الجهاد، فكان يلازم مطالعته (ص٨٦)، وكان يرحب بالقادة الصليبيين الذين يرغبون في لقائه مثل حاكم «شقيق ارنون» الذي فاجأه بزيارته، وكان يحسن العربية وله اطلاع على التاريخ الاسلامي (ص٩٧).

هذا وذكر محمد الاصفهاني في كتابه «الفتح القسي ص٣٩٤» وجود ابن شداد الى جانب الملك العادل، شقيق صلاح الدين وجماعة من الأمراء للبحث في اقتراح زواج العادل بأخت ملك الانكليز، الأمر الذي كان مطروحاً لتسوية الحروب الصليبية، الأمر الذي لم يتم بسبب معارضة رجال الكنيسة كما ذكر الاصفهاني (ص٣٩٨-٣٩٩) سفر صلاح الدين الى القدس لأداء صلاة الجمعة في اول ايام ذي الحجة، بمسجد الصخرة المقدسة، يصحبه ابن شداد، مما يدل على تمتعه بمكانة خاصة لدى السلطان.

ويتولى ابن شداد الكشف عن بعض شؤون العلاقات السلمية بين السلطان وامبراطور الروم في القسطنطينية، وقد تجلى ذلك في الرسائل التي بعثها الامبراطور الى صلاح الدين، وتتضمن اخباره بإقامة الخطبة في جامع تلك المدينة من قبل رسول الخليفة، الذي لقي احتراماً كبيراً وإكراماً من جانب الامبراطور، وكان ذلك الرسول قد اصطحب معه في السفن المنبر وجمعاً من المؤذنين والقرّاء، وكان دخولهم الى العاصمة يوماً عظيماً، واجتمع المسلمون المقيمون بها والتجار، وقد أقام بهم رسول الخليفة الدعوة الاسلامية.

وقد شاهد ابن شداد رسول الامبراطور وهو يبلغ صلاح الدين بنص رسالة الامبراطور بهذا الشأن ومعه الترجمان، وقد كانت تلك الرسالة مختومة بالذهب، وقد أشارت الى المرجفين بذكر الأكاذيب عن بلاده، ونوه بالعراقيل التي تعرضت لها الحملة الالمانية عند مرورها بأرض الروم، الى درجة ان الألمان لن يصلوا الى البلاد الاسلامية الا في اضعف حال، وقال: ان الامبراطور رغم ذلك، ما ربح شيئاً من محبة صلاح الدين، الا عداوة الافرنج وجنسهم (ابن شداد ١٣٢-١٣٣).

اما الرسالة الواردة من امبراطور الروم الى صلاح الدين، فكانت تشتمل ايضاً على طلب الصليب الصلبوت، وان تكون كنيسة القيامة بأيدي قسيس من الروم، وكذلك سائر كنائس القدس (ابن شداد ص٢٠٩)،

كما تضمنت الاتفاق على ان من يكون عدواً لملك الروم لمن عاداه وصديقاً لمن صادقه، وطلب الامبراطور السماح له بقصد قبرص وقد قوبلت جميع المطالب بالرفض، وقيل للمندوب الرومي: ان الصليب المطلوب قد بذل فيه ملك كرج (١٠٠) ألف دينار ولم يجب الى ذلك، وتضمنت (ص٢١٥) من الكتاب المذكور، بعض الاخبار عن عدوان الافرنج على قوافل المسلمين، وبلغت اخبارها لصلاح الدين فساءه ذلك، وأخذ ابن شداد في تسكينه وتسليته، وهو لا يكاد يتقبل التسلية.

ثم ينتقل ابن شداد (ص٢١٦) الى ذكر حضوره مجلس السلطان وعنده الامراء، وأمره ابن شداد ان يكلمهم ويحثهم على الجهاد، خصوصاً بعد عدوان الألمان على المسلمين الذين أبدوا بسالة وتفانياً في الدفاع، مما أفشل تلك الحملة التي تعرضت لهجمات العساكر، حتى لم يبق مع ملك الألمان الا القليل، وقد كان كتاب ابن شداد مصدراً لكثير من المؤلفات عن الجهاد الاسلامي، خاصة لدى الكتّاب الذين الفوا في موضوع الجهاد.

هذا وقد تضمن «مفرج الكروب ج٢/٣١٠» خبر ارسال صلاح الدين رسالة الى الخليفة العباسي سنة ٥٨٦هـ يحملها ابن شداد، كما كلفة بتبليغ حكام سنجار والجزيرة والموصل وإربل الدعوة الى الهاجد، فجابوا بالقبول.

كما تضمن هذا الكتاب خبر قيادة صلاح الدين للقوات الاسلامية في معركة «عكا» ص٣٢٥-٣٢٧، من «مفرج الكروب» الذي نقل عنه (ص٤٠٥-٤٠٦) بعض تخوف صلاح الدين من دعوات الصلح التي يطلقها العدو من ان تؤدي الى تقاعس قادة المسلمين مما يمنح العدو الفرصة، كما ينقل عنه خبر وفاة السلطان رحمه التي شهدها بنفسه حتى دفنه (ص٤١٦-٤٢٣).

كذلك نقل عنه بعض صفاته (ص٤٢٩-٤٣٨) ثم انتقل ابن شداد الى مصر ليصحب الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين، الذي ولى امرها، ثم انتقل (اي ابن شداد) الى حلب سنة ٥٩١هـ متولياً قضاءها ومدبراً أمور حاكمها «الملك الظاهر» واستمر فيها.

وقد كان لابن شداد باع كبير في التدريس، فهو شيخ ابن خلكان ومن

مؤلفاته علاوة على سيرة صلاح الدين، عدد من الكتب الفقهية، مثل «دلائل الاحكام» و «ملجأ الحكام عن التباس الاحكام» وغيرها (انظر وفيات ابن خلكان وطبقات الشافعية للسبكي وتاريخ ابن الوردي، ومقدمة كتاب الروضتين للدكتور محمد حلمي احمد» **واهمية كتاب ابن شداد ان مؤلفه لم يفارق صلاح الدين منذ التحق بخدمته سنة ٥٨٤هـ حتى وفاته، وكان ينتقل معه في ميادين القتال ويشارك في القتال، او يقوم بمراقبة حركات الأعداء، أو يبلغ رسائل صلاح الدين الى القادة، أو يقرأ عليه بعض الحديث، حتى في ساحة القتال.**

وظل ابن شداد ملازماً له حتى بعد ان عين قاضياً للقدس (مقدمة المحقق لكتاب الروضتين ص٢٨-٢٩) وقد اعتمده ابو شامة مصدراً اساسياً يعتمد عليه، اذ لازم مؤلفه صلاح الدين لا ينقطع عنه (المصدر السابق ج١، ص٣٥-٣٦) والجدير بالذكر ان ابن شداد ذكر في كتابه (٢٤٧) انه فرغ من جمعه يوم وفاة صلاح الدين رحمه الله وانه صنفه لوجه الله تعالى، وفي حث الناس على الترحم على صلاح الدين وذكر محاسنه.

ومما ذكره ابن شداد في كتابه (ص٢٠٩) بأن السلطان انفذه لمشاورة القادة في أمر يتعلق بالملك العادل، فأجمعوا كلهم على تأييد كل قرار يتخذه صلاح الدين بشأن الأمور التي تقع بينه وبين أخيه، ثم يتحدث (ص٢١٤-٢١٥) عن معركة فاجأ بها الصليبيون المسلمين، وقد وصل خبرها الى السلطان حينما كان ابن شداد في خدمته، وقد أثر ذلك الخبر في نفسيته كما أسلفنا، ويشير المؤلف (ص٢١٦) الى اجتماع عقده السلطان مع جميع الأمراء لإعداد حملة لمواجهة العدو، اذ يقول: كلفني السلطان «ان اكلمهم واحثهم على الجهاد» ثم ذكر نصوص بعض اقواله، ودعاهم الى الاجتماع عند الصخرة المباركة والحلف هناك على الموت، مما ترك أثراً عميقاً في نفوسهم.

وكان السلطان يخص ابن شداد بالأخبار الواردة من جبهات القتال (ص٢١٦-٢١٧)، ومنها انه أمضى ليلة كاملة معه، في التفكير فيما يجمع المسلمين ويقضي على أسباب الفرقة، وكان صلاح الدين يصغي لنصائحه التي تنبعث من روح اسلامية صافية، ثم يؤدي برفقته صلاة الجمعة في المسجد

الأقصى، وهكذا تقبل الله سبحانه دعوات صلاح الدين اذ غادر الصليبيون عدداً من المواقع ومنها عكا، وقاتلهم المسلمون وهم ينسحبون، فقتلوا عدداً منهم وأسروا آخرين (ص٢١٨-٢١٩) وكان السلطان يستدعي ابن شداد وهما في جبهات القتال، ويكلفه بكتابة الرسائل الى بعض حكام المسلمين، وقد حضر المؤلف استسلام الصليبيين في «يافا» بعد حصار المسلمين لها، وكان ابن شداد في مقدمة الداخلين اليها (ص٢٢٢-٢٢٥).

ومما ورد في كتاب «مفرج الكروب ج٢/٢٧٤-٢٧٥» ان ابن شداد حضر بمعية صلاح الدين حصار «صفد» وقد وصف عملية الحصار والانتصار على العدو، وكتب بذلك الى الخليفة مبشراً بأخذ الكرك والشوبك وصفد وكوكب، وذكر المؤلف (ج٢/٣٠٤) ان ابن شداد كان من الاشخاص الذين يستشيرهم السلطان في أمر القتال لاستعادة «عكا» وورد في هذا الكتاب (ج٢/٣١٠-٣١٤) خبر عن انتداب صلاح الدين لابن شداد في أوائل سنة ٥٨٦هـ ليبلغ الخليفة بأخبار مرور ملك الألمان وجيوشه بالقسطنطينية، وان قدومه كان بسبب كسرة الافرنج في حطين وتحرير بيت المقدس، فحملته العصبية الدينية على جمع جيش حاشد لاسترجاع القدس (ج٢/٣١٧-٣١٨).

ولما لم يدعم ملك الروم ولم يسعفهم بالغذاء، تشردوا عند وصولهم الى بلاد الشام، اذ يجهلون جغرافية الطريق، كما فعلت الثلوج فعلها في إفنائهم حتى أكلوا دوابهم، وتخطفهم التركمان، ولكنهم مع ذلك وصلوا الى بلاد الأرمن، فدخلوا في طاعتهم، لكن تفاصيل الأخبار كلها تبشر بانفراط ذلك الجيش وضياعه بعد موت الملك الألماني (ج٢/٣١٩-٣٢٣).

ومما ذكره ابن شداد ان صلاح الدين قد استدعاه الى دمشق في المحرم من سنة ٥٨٩هـ، ولقيه قبل ان يدخل احد غيره «ابن شداد ص٢٤٢» واستمر بقاء ابن شداد في دمشق حتى وفاة صلاح الدين رحمه الله في ٢٠ صفر من تلك السنة (ص٢٤٦).

اما ابن شداد نفسه فقد توفي بحلب سنة ٦٣٢هـ ١٢٣٤م، والمعروف انه كان قاضياً، ويقول ابو شامة عنه: انه كان من الرؤساء وكان للناس به نفع، وكان (اي ابو شامة) يجتمع به في دمشق، حيث اجاز له،

ثم سمع عليه بمصر سنة ٦٢٨هـ، عند قبة الامام الشافعي رحمه الله، (انظر كتاب الروضتين لأبي شامة ج٢/١٦٣)، ولابن شداد مؤلفات كثيرة علاوة على ما كتبه عن صلاح الدين، ومنها كتابه في «فضل الجهاد» (انظر الروضتين ج٢/١٦٦) وممن ترجم لابن شداد تلميذه ابن خلكان في (الوفيات ج٢/٣٥٤ طبعة مصر ١٣١٠هـ) كما ترجم له السبكي في (طبقات الشافعية ج٥/١١٥ طبعة مصر ١٣٢٢هـ) وله ترجمة في «اعلام» الزركلي (ج٨/٢٣٠ طبعة سنة ١٩٧٩م).

❖ الكتب التي ألفت في سيرة صلاح الدين:

يأتي في مقدمة تلك الكتب «سيرة صلاح الدين» لابن شداد السابق ذكرها، ومثله كتاب العماد الاصبهاني «الفتح القسي في الفتح القدسي» وهذا الكتاب مكتوب بالسجع الذي يعم الكتاب كله، وهو اسلوب عرف به العماد الاصفهاني في سائر مؤلفاته الاخرى، وقد كان الاصفهاني كإبن شداد في صحبة صلاح الدين، وقد ذكر «اي الاصفهاني» بصراحة وجود ابن شداد في صحبة صلاح الدين وأخيه الملك العادل، وخاصة فيما يتعلق باقتراح زواج العادل بأخت الملك الانجليزي «الفتح القسي ص٣٩٤).

وعلى اي حال فإن ابن شداد قد اهتم كشاهد عيان بجميع تحركات السلطان ولنأخذ مثلاً معركة «عين جالوت ص٦١» فقد ذكرها في موعدها المحدد (٢٢ ربيع الآخر ٥٧٩هـ) وقد كان بعض القادة الذين قدموا لكشف اخبار الافرنج قد اكتشفوا ان عسكر الكرك والشوبك كانوا سائرين لنجدة العدو، فقتل المسلمون عدداً كبيراً منهم، وأسروا زهاء (١٠٠) شخص، مقابل مقتل مجاهد واحد (ص٦٢-٦٣).

ومن الكتب التي اهتمت بصلاح الدين وجهاده للأعداء، كتاب «مرج الكروب في أخبار بني أيوب» لجمال الدين محمد واصل، ثم كتاب «الروضتين في أخبار الدولتين، النورية والصلاحية»، وهو بقلم عبد الرحمن المقدسي المعروف بأبي شامة، ومما جاء في هذا الكتاب (ج/٣٨٥ ٢-٣٨٦) ان السلطان كان يكلف القاضي ابن شداد ان يتكلم مخاطباً العساكر عندما يكلفون بمهام قتالية، فيحثهم على الجهاد، وكان صلاح الدين يتولى الحديث

بعده، فيؤكد عظم مهمة المجاهدين، وانهم يحفظون حياة المسلمين.

وجاء في هذا الكتاب ان السلطان كلف ابن شداد بنقل رسالة الى الخليفة، وعوّل عليه ليشرح الأمور التي أرادها، وجاء في هذا الكتاب (ج٢/٣٧٤-٢٧٥) ان ابن شداد حضر مع صلاح الدين حصار صفد، وهو الذي كتب بشأن هذه الوقعة، الرسالة الموجهة الى الخليفة على لسان صلاح الدين مبشراً بالنصر، كما ذكر المؤلف (ج٢/٣٠٤) ان ابن شداد كان في جملة الاشخاص الذين يستشيرهم السلطان في محاولة استرداد عكا، وقد انتدبته في اوائل سنة ٥٨٦هـ ليوصل الى الخليفة الخبر عن مرور ملك الألمان بجيوشه بالقسطنطينية، وهي تقدر بين ٢٠٠ ألف و ٢٦٠ ألفاً من المقاتلين «مفرج الكروب ج٢/٣١٧-٣١٨).

❖ ملاحظات ذات علاقة بالموضوع:

هناك بضع ملاحظات تتعلق بشخصيات مهمة ذات علاقة بموضوع هذا المقال، وهي:

١- ذكر عز الدين «جورديك» الذي عين والياً على القدس عقب تحريرها، اذ ذكره ابن شداد «ص٦١ حاشية ٦، ص٢٤٠» وقال: وهناك قدم «جورديك» وجماعة من المماليك النورية، فصادفوا عسكر الكرك والشوبك سائرين لنجدة الافرنج، فهجموا عليهم وقتلوا منهم مقلتة عظيمة، وأسروا (١٠٠)، وهو الخبر الذي ورد ذكره في «مفرج الكروب ج/٢، ص٢٢ هامش ٣ وص ٢٣ هامش ١»، وجورديك هذا من القواد الذين رافقوا «شيركوه» في حملته على مصر، وشارك صلاح الدين عند القبض على الوزير الفاطمي «شاور» ثم كان جورديك من القادة الذين احتلوا حماة وقلعتها، حينما هاجمها صلاح الدين، وقد كان نشطاً في ترسيخ حكمه في جهات حلب وحماة «مفرج الكروب ج/٢٢-٢٣».

ويضيف مؤلف «الفتح القسي ص٢٧٢-٢٧٥» قائلاً: انه كان من جملة القواد الذين تصدوا لملك الألمان بقيادة الملك العادل، وكان النصر حليفه، وكان ابن شداد ممن شهدوا هذه المعركة التي اسفرت عن مقتل عشرة آلاف قتيل من الافرنج مقابل عشرة شهداء من المسلمين، وفي هذا الكتاب (ص٤١٩) ورد ذكر جورديك، في قيادة غارة سنة ٥٨٨هـ على موقع «يبنى» وفيه الافرنج، وقد غنم

المسلمون عدداً من الأسرى، كما انه أغار على عسكر للعدو في عسقلان وأسر (٣٠) شخصاً منهم والذي دعاني الى ذكر هذا القائد هو انتداب صلاح الدين لابن شداد لمراسيم توليته لولاية القدس نيابة عنه، ويبدو ان ابن شداد كان من جملة المؤيدين لجورديك، لأنه كثير الجد والخدمة لأهل الدين والخير مما حمل صلاح الدين على توليته القدس، وتكليف ابن شداد بأن يتولى ذلك، فتمت التولية يوم الجمعة عند الصخرة المباركة «ابن شداد ص٢٤٠».

٢- ثم يأتي ذكر شخصية اخرى في سياق تاريخ الجهاد الاسلامي في فلسطين، وهو ذكر بهاء الدين «قراقوش» الذي عينه صلاح الدين لتولي عمارة عكا وأسوارها «الفتح القسي ص١١٨ وما بعدها» وقد ذكر هذا المصدر «ص١٦٩ وما بعدها» امر صلاح الدين له، بإتمام سور عكا وإحكامه «مفرج الكروب ج٢/٥٢-٥٤ وحواشيها».

والجدير بالذكر ان صلاح الدين سبق له ان أمر قراقوش ان يبني سور القاهرة وقلعتها، وأنه قام بتلك المهمة خير قيام، ولا تزال القلعة قائمة حتى يومنا هذا، ولذلك اكتسب اعجاب صلاح الدين وثقته -كما يتضح مما ورد في «الفتح القسي ص٣١٦» من مديح صلاح الدين له، وإقدامه في القتال حتى سماه «المقدام المقدم» في محاربة الجيش الألماني في أواخر سنة ٥٨٦هـ.

غير أنه من المؤسف ان شخصية قراقوش اقترنت عند الناس، بارتكاب المظالم والقسوة، وهو غيره ولقبه شرف الدين الذي اساء للناس، وقد كان من خدم عمر بن ايوب وكانت حياته سلسلة من المغامرات والمذابح والنهب والسلب، مما ألقى في نفوس الناس الهلع «انظر تاريخ الاسلام -ابراهيم حسن ص٦١٢ وحاشيتها» لذلك ينبغي عدم الخلط بين الشخصين.

اما صاحبنا ويسمى بهاء الدين قراقوش القوي المتوفى سنة ٥٩٧هـ فقد قام بغزو بلاد المغرب في الفترة ٥٧١-٥٨٢هـ حسبما ورد في «مفرج الكروب ج١/٥٦١ حاشية ٤» وقد ورد في الفتح القسي ص١١٨-١١٩، القول: بأنه تولى عمارة سور عكا، ثم سجل خبر احتلالها (ص٣٥٨-٣٥٩).

وفي هذه المصادر نجد القول: بأن

قراقوش هذا هو غلام الملك المظفر، عمر ابن شاهشاه بن ايوب، وانه خرج الى المغرب في طائفة من الترك، وانضم اليه جماعة من العرب، واستولى على طرابلس وعلى كثير من بلاد افريقيا، وقد انضم اليه مسعود بن زمام -وهو من أعيان المغرب، وكان خارجاً عن طاعة عبد المؤمن (خليفة المغرب وأولاده) فاتفقا وكثر جمعهما، وحكم قراقوش تلك البلاد وصار معه عسكر كثير وجرت بينه وبين المغاربة حروب كثيرة (ليس هذا موضع ذكرها)، ولكن محمد بن واصل ذكرها في كتابه «مفرج الكروب ج١/٢٣٥-٢٣٦» وان قراقوش هو الذي غزاها، كما انه يشير الى استيلاء عساكر مصر على برقة وحصونها حتى بلغوا حدود المغرب.

ومما يدل على قوة شخصية قراقوش هذا، الوصف الذي خصه به العماد الاصفهاني في كتابه «الفتح القسي ص١١٨» حيث سماه «الشهم الماضي السهم، المضيء الفهم الهمام المحرب النقاب المجرب، المهذب اللوذعي المرجب، اللوذعي الالمعي.. وهو الثبت الذي لا يتزلزل والطود الذي لا يتحلحل، الذي يكفل جاشه بما يتكفل به الجيوش، وهو الذي أدار السور على مصر والقاهرة، وكوتب بالحضور لتولي الامور وعمارة السور، وقد استصحب معه كل ما يفتقر اليه من اسباب العمارة، ورجالها وعمالها وعمارها ومهندسيها ومؤسسيها، ومثل بالخدمة السلطانية.. الخ».

ثم ترد اشارة اخرى في «الفتح القسي ص٣٠٦» الى جهد قراقوش في بناء أسوار عكا، حيث سد الثغرات فيها واعمار الاضرار الناجمة عن هجمات الافرنج، ثم يفاجئنا ابن شداد في كتابه «سيرة صلاح الدين» (ص٢٣٩-٢٤٠) بخروج بهاء الدين قراقوش من الاسر في شوال ٥٨٥هـ وقد فرح بخروجه صلاح الدين، وسارع للقائه، غير انني لم اجد في المصادر المتيسرة اي خبر عن اسره، ووجدت خبر اطلاقه من الاسر في (الفتح القسي ص٤٤٤-٤٤٨)، حيث قال المؤلف الذي رافق صلاح الدين في رحلته من القدس الى طبرية: انهم التقوا هناك ببهاء الدين قراقوش الذي اطلق من الاسر، ولم اجد في اي مصدر رجعت اليه شيئاً عن أسره، ويبدو ان الافرنج اسروه عند احتلالهم عكا، عندما كان مشغولاً في اعادة بناء أسوارها.

٣- ورد في كتاب الفتح القسي

ص٢١٦-٢١٧، ان صلاح الدين عوّل على القاضي ابن شداد ليكون هو كتابه المرسل الى الخليفة، وكلفه ان يحسن القول ويصف حقيقة الحال ويبدو ان ابن شداد قد أدى المهمة بنجاح، اذ ما لبث ان اثمرت الزيارة، حيث تلقى صلاح الدين رسالة من الخليفة في ربيع الأول من سنة ٥٨٦هـ على يد رسول خاص من قبل الخليفة الذي ارسل معه احمالاً من النفط الطيار، واحمالاً من العتاد وقدور النفط ومبلغ (٢٠) ألف دينار ذهباً، مع جماعة من «الزراقين النفاطين» الذين صنعوا من تلك المواد اسلحة حارقة، احرقت الكثير من اسلحة العدو وكبدته خسائر جسيمة، ولا سيما في السلاح ووسائط النقل (الفتح القسي ص٢٤٢-٢٥٢).

وهكذا لعب النفط الذي ارسله الخليفة من العراق دوراً في تدمير استحكامات العدو، حتى ان احد الزراقين استأذن السلطان للدخول الى عكا التي يحتل العدو نصفها، للقيام بتفجيرات في استحكاماته، هذا وقد ورد في «مفرج الكروب ج٢/٣٠٧» خبر عن ورود احمال من النفط الأبيض ومجموعات من التروس والرماح من الأنواع الجيدة، من صاحب الموصل.

هذا وقد اعتبر مؤلف «الفتح القسي ص٢٨٣ و٢٩٠-٢٩١» ان انتصار المسلمين على الألمان الذين جاءوا لينتقموا من المسلمين الذين حرروا القدس وعشرات المدن والمرافق المهمة، وينسب المؤلف ذلك النصر الى وجود الزراقين الذين احرقوا اسلحة الألمان بنيران نفطهم، فهل يعيد التاريخ نفسه فيكون نفط العراق والبلاد العربية الأخرى عاملاً في هزيمة اليهود؟!!

٤- لؤم اوروبي:

يبدو ان الأوروبيين ولا سيما الانجليز والفرنسيين، رغم ادعائهم بكونهم علمانيين، فقد فضحتهم الحرب العالمية الأولى، حيث ان القائد الفرنسي -وقد نسيت اسمه- الذي اسقط الدولة العربية الفيصلية، واحتل دمشق، حرص قبل ان يفعل اي شيء على التوجه الى القبر الذي يضم الجثمان الطاهر لصلاح الدين الايوبي مبادراً بمخاطبة القبر الشريف وبلهجة مكابرة فقال: «ها أننا قد عدنا يا صلاح الدين»!!.

اما زميله البريطاني الذي احتل القدس، فقد اعلن لوسائل الاعلام مفاخراً وقال: «الآن انتهت الحروب الصليبية»

وهكذا يحقدون على من ألحق الهزيمة بهم قبل ثمانية قرون!! ولكن صلاح الدين رحمه الله قد فضحهم وهو في قبره، كما فضحهم عندما ألحق بهم الهزيمة.

ويهمني في هذه المناسبة ان اذكر شيئاً عن القائد البريطاني آنف الذكر، لأنني اذكر اسمه جيداً، وهو المارشال «هنري اللنبي» الذي كافأته حكومته بتعيينه «المندوب السامي البريطاني في مصر اي الحاكم بأمره على مصر بملكها وحكومتها» وقد شغل هذا المنصب من سنة ١٩١٨ حتى سنة ١٩٣٥، اي قبل سنة من وفاته.

هذا وقد القت حكومة الوفد المصري في اواخر سنة ١٩٥١ المعاهدة المصرية – البريطانية التي تمنح المندوب سلطة عليها، وهذا الالغاء مهد السبيل للحكومة العسكرية الانقلابية في سنة ١٩٥٦ تأميم الشركة الفرنسية التي تملك حق ادارة القناة، مما ادى الى ملابسات خطيرة استغلتها اسرائيل مما لا علاقة له بمقالنا هذا.

❖ المراجع:

البغدادي -اسماعيل باشا البابانى المتوفى سنة ١٣٣٩هـ:

١- ايضاح المكنون في الدليل على كشف الظنون، استانبول ١٩٤٧م.

٢- هدية العارفين الى اسماء المؤلفين، استانبول ١٩٥١م.

٣- حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي، القاهرة.

٤- الحنبلي العماد الحنبلي، الشذرات، مصر ١٣٥٠هـ.

٥- ابن خلكان وفاة الأعيان، القاهرة ١٩٤٨ .

٦- الزركلي، خير الدين، معجم الاعلام، دمشق ١٩٥٧م.

٧- السبكي طبقات الشافعية، القاهرة ١٣٢٤هـ.

٨- ابو شامة، عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي، كتاب الروضتين ١٩٥٦م القاهرة.

٩- ابن شداد، بهاء الدين يوسف بن رافع الموصلي، النوادر السلطانية، القاهرة ١٩٦٢م.

١٠- العماد الاصفهاني، محمد بن محمد بن حامد، الفتح القسي في الفتح القدسي، لايدن ١٨٨٨م.

١١- العماد الاصفهاني، طريدة القصر، بأقسامها العديدة لكل قطر «كالعراق ومصر والشام.. الخ».

١٢- ابن واصل محمد بن سالم، مفرج الكروب في اخبار بني ايوب، بجزئين، القاهرة ١٩٥٣-١٩٥٧م.

١٣- رضا كحالة، معجم المؤلفين، دمشق.

١٤- الموسوعة الانجليزية المسماة «هاتشيسن» لسنة ١٩٩١م.